المرجعيّات الفكرية للنقد المغاربي ما بعد الحداثة

د. إبراهيم بوخالفة المركز الجامعي تيبازة

مقدمة:

لقد وضعت الظروف الدوليّة الحديثة منطقة المغرب العربي على تخوم أوروبا الغربيّة، التي كانت الحاضنة التاريخيّة للحداثة على جميع الصّعد. والذي يهمّنا في هذه الورقة هو مجال الحركة النقديّة في فترة ما بعد الحداثة ومرجعياتها الفكرية والجماليّة، وكيفيّة استفادة بلدان المغرب العربي من هذا الوضع المثاقفي الإشكالي، ومدى استفادتها من هذا الجوار المزمن لأوروبا الغربيّة.

والذي يبرّر الحديث في هذا الموضوع المعقد، وعلى صعيد إقليمي، بدل الوطني، هو أن دول المغرب العربي الثلاثة، (تونس والجزائر والمغرب) هو الشبه الذي يرتقي إلى حدود المطابقة بين هذه البلدان الثلاثة في مجال العلاقة مع أوروبا الغربيّة في مجال النقد والإبداع الأدبيين. ففي وقتٍ ما، كان المغرب العربي كله يخضع لاستعمار فرنسي. بينما كانت فرنسا تُعَدُّ الجمهوريّة العالميّة للأدب، وتأثيرها خارج حدودها لا يرقى إليه الشكّ. لم تكن التحوّلات الفلسفيّة والجمالاتيّة التي مسّت أوروبا في عمقها الثقافي مع أواخر القرن التاسع وعشر ومطلع القرن العشرين، حقيقة خاملة بالنسبة للمغرب العربي، الذي كان لا يزال يتشكّل ثقافيا وأدبيا واجتماعيا، تحت أعين الامبراطوريّة الفرنسيّة. فقد انتهت المرحلة الاستعماريّة بجيل فرونكوفوني قد تشبّع من علوم الغرب في جامعاتها، ثم عاد إلى وطنه من أجل زرع بذرة التنوير في جميع حقول المعرفة.

ولقد نتج عن انهيار السرديّات الكبرى وفشل مشروع التنوير في الغرب، التحول إلى فلسفات ما بعد الحداثة، حيثُ تغيّر موقف النّقد من العالم، وتغيّرت وظيفته

الاجتماعيّة. كما أنّ فلسفة الأدب في حدّ ذاتها تغيّرت، وظلّلتها الشكوك، والتوتّرات وأعوزها اليقين، وغابت عنها الحقيقة. لقد أضحت العقائد ضربا من السفسطائيّة؛ فلا شيء ثابت، ولا شيء موضوعي أو يقيني، كلّ شيء في تغيّر وتحوّل، يتعذّرُ معه القبض على المعنى والظّفر بالسكينة الناتجة عن الحقيقة الميتافيزيقيّة عندما تسكن الذّات العالِمة. وترتّب عن تلك الحالة من اللايقين واللاجدوى رؤية نقديّة ذات مرجعيّة تفكيكيّة تؤمن بالتقويض والنقض والرفض والموقف السّاخر من المجتمع ومن عقائده. وهكذا تسرّبت هذه الروح الساخرة من كلّ شيء إلى الثقافة العربيّة من خلال الوسطاء المتعدّدين. فالترجمة وسيط فعّالٌ في نقل المعرفة الغربيّة وتحولاتها إلى الثقافة العربيّة. كما أنّ الطّبقة العالِمة التي تكوّنت في الجامعات الغربيّة تتكفّل بنقل كلّ مستجدات الأدب والنقد والمعرفة بشكل عام إلى الثقافة العربيّة دون الأخذ بالاعتبار محاذير العولمة الثقافيّة وما تشكّله من تهديد على الهويّة القوميّة.

في هذه الورقة ندرس مرجعيات النقد ما بعد الحداثة في الغرب وأثرها على النقد المغاربي الحديث، ونمثِّل لذلك ببعض النقاد المغاربيين، مع التركيز على النقد ما بعد الكولونيالي باعتباره نقدا ما بعد حداثي.

مناهج النقد في زمن الحداثة في المغرب العربي:

النقد الاجتماعي:

في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، عرفتْ النظريّة الماركسيّة في المغرب العربي، وبدرجات متقاربة بين البلدان الثلاثة، عصرها الذّهبي، وانتشرت بشكل لافت في الأوساط الجامعيّة والعماليّة. فقد راجت مصطلحات نوعيّة على غرار "الماديّة التاريخيّة، والوعي الطّبقي، والماديّة الجدليّة والقاعدة والبنية الفوقيّة، والتشيء والإيديولوجيا"[1]. والوعي الزائف والتّشيء والاستلاب، وكلّها مصطلحات تصبّ في الرؤية الماركسيّة للعالم وللنص الأدبي. وكان شيوع هذه المصطلحات في الوسط الثقافي والأكاديمي مؤشّرا على اتّجاه النقد الأدبي في المغرب العربي لم يخرج من العباءة الفرنسيّة، وإن كان يسير متخلّفا

---

[1]-سايمون تورمي، وجولز تاونزند، المفكّرون الأساسيّون/ من النظريّة الماركسيّة إلى ما بعد الماركسيّة، ترجمة محمّد عناني، المركز الثقافي للتّرجمة، القاهرة، ط الأولى 2016، ص 7.

عنها بأجيال. فالنقد بشكله الماركسي الأرثودوكسي بدأ يتراجع عن الكثير من مبادئه، مع أفول مشروع الحداثة وتعرضه للفشل الذّريع بعد الحرب العالميّة الثانية. ففي 1955 أعلن المفكّر الفرنسي "ريمون آرون" عن موت الإيديولوجيا في كتابه (أفيون المثقفين) بقوله: "عصرنا يتميّزُ بنهاية الإيديولوجيا"[1]. ومع أنّنا نتحفّظُ على هذا الحكم المبكّر وغير المبرّر من قبل هذا المفكر الفرنسي، فإننا نجادلُ أنّ الماركسيّة الكلاسيكيّة كانت لا تزال محلّ ثقة العامّة والخاصّة في المغرب العربي، بل وفي العالم العربي كافّة، نظرا لاقترانها بمشروع التّنوير العربي الذي-ويا للمفارقة-لم يكن يملك رؤية حضارية واضحة، وكلّ همّه هو اقتفاء خطوات الحداثة الغربيّة.

لقد كان الكثير من الروائيين المغاربة والشعراء والنقاد ينتجون المعرفة تحت وطأة الرؤية الماركسيّة للوجود، رغم ما يشكّله ذلك من قطيعة ابستيمولوجيّة وجماليّة مع التراث العربي والإسلامي. وتُعتبرُ الماركسيّة سرديّة كبرى من سرديّات التنوير الغربي. أي "القصّة التي تُضفي المشروعيّة على أشكال معيّنة من المعرفة من خلال بثّ فلسفة معينة في ثناياها تقطع بصحّتها، أو بعبارة أبسط نقولُ إنّها القصّة التي تهدفُ إلى إقامة مذهب فكري أو إيديولوجي معين يستوعبه السامع أو القارئ أثناء استمتاعه بمتابعة الحكاية"[2]. فالرواية إذا كانت تستشرف رؤية ماركسيّة للوجود (الأم/ ماكسيم غوركي)، نسميها سرديّة كبرى، أو ميتا-قصّة، أو ما وراء قصّة.

ويخطر بالبال في هذا السياق الفكري والتاريخي الروائي الجزائري الراحل الطّاهر وطّار، ورشيد بوجدرة، والقصاص عمار بلحسن، والناقد والمفكّر المغربي عبد الله العروي، صاحب "الإيديولوجيا العربيّة المعاصرة". والواقع أنّ الفكر الماركسي في الجزائر بشكل خاص، كان يستمتع بأرض خصبة في الجزائر، والأمر يختلفُ بعض الشيء في بلدان المغرب العربي الأخرى، حيثُ كانت الهيمنة للفكر الليبيرالي والرأسماليّة الهجينة. كانت المؤسسة السياسيّة في الجزائر تتبنّى الفكر الماركسي وتروج له، وكان الكتاب الماركسي يملأ المكتبات العامّة وبأسعار مدعّمة، طيلة السبعينات والثمانينات من ق الماضي، الأمر الذي

---

[1]-عبد الله إبراهيم، ما هي الإيديولوجيا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط الأولى 2017، ص92.

[2]-المرجع نفسه، ص17.

جعل هذا الفكر المادّي ينتشر ويلقى القبول والاحتفاء المطلق لدى الطّبقة المثقفة ولدى المؤسسات الأكاديميّة على الخصوص. ولا بدّ أن يؤثّر هذا المناخ المعرفي على حقلي الأدب والنقد، وهو الجانب الذي يهمّنا في هذه الدّراسة.

مارس العديد من النقّاد الجزائريين النقد الاجتماعي في ثمانينات القرن العشرين، كما مارسوا النقد الإيديولوجي من منظور الماديّة التاريخيّة، كما مورس هذا النقد وبدرجات متفاوتة في تونس والمغرب. ففي هذين البلدين كانت النظريّة الماركسيّة تحتلّ وضع المعارض، إذْ أنّها نظريّة مناوئة للخطاب المؤسّساتي الرّسمي. قد يكون من المناسب التعرّف على المبادئ الأوليّة للنقد الماركسي من أجل إدراك سبب تصادمه مع الخطاب المؤسّساتي. يوجد اتّجاهان أساسيّان في النقد الماركسي: "أحدهما نقدٌ غارقٌ في الإيديولوجيا، متعصّبٌ للتفسير الاقتصادي للثقافة، يطالب الأدب بالانسجام مع الرؤية الماركسيّة الحزبية لحركة المجتمع، بما يتضمّنه من صراع طبقي ويهاجم ما خالف ذلك. والآخر نقد معتدل يعترف باحتفاظ الأدب بقيمة فنيّة تتجاوز به الإيديولوجيا البورجوازيّة إلى حدّ يمكنه فيه أن يعكس الواقع الموضوعي لعصره"[1]. بينما ترفض المؤسسة الثقافية الرسميّة في الأنظمة المستبدّة أن ينخرط الأدب في نقد الواقع وبيان تناقضاته التي تفضح الطّبيعة الطّبقيّة للمجتمعات المغاربيّة. وبسبب هذا الدور الكاشف والناقد للأدب الماركسي يتعرض المبدعون اليساريون والنقاد الذين يمارسون النقد الإيديولوجي للمضايقة والرقابة من قبل الأنظمة الحاكمة، بدعوى أنّ "الإيديولوجيا تشكّلُ التبلور النظري لشكل من أشكال الوعي الزائف"[2]. في تونس كان التيّار اليساري يتسلل إلى المجتمع من خلال النصّ المسرحي، من أجل مخادعة المؤسسة السياسيّة القمعيّة. وقد تمكن هؤلاء الفاعلون من تحريك الرأي العام وفضح التبعيّة إلى الغرب الرأسمالي التي أغرقت فيها البلاد.

---

[1]-ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط الثالثة 2002، ص324.

[2]عبد الله إبراهيم، ما الإيديولوجيا، ص99.

كان الأدباء والنقّاد الماركسيّون يتحايلون من أجل تمرير خطاباتهم وتمكينها من القيام بمهامّها التاريخيّة المتمثّلة في إغناء النقد المغاربي والنّهوض به ليضارع النقد المشرقي والعالمي بجدارة. كان النقاد الجزائريون يتمتعون بوضعٍ أكثر سلاسة وحرية من نظرائهم في الدول المغاربيّة الأخرى. غير أنّنا نجد البدايات الأولى لهذا النقد في الجزائر فجّة وغير ناضجة، الأمر الذي حوّل الخطاب الأدبي إلى دعاية إيديولوجيّة ممجوجة، أو أنّه (أي النقد الماركسي)، قد أُخِذَ من السطح ليتحوّل إلى نقد اجتماعي عام بعيدا عن النظريّة في عمقها النظري. وفي هذه الحالة قد يمارس هذا النقد الاجتماعي من هم أبعد الناس عن الماركسيّة.

فالماركسيّة نظريّة نقديّة مشاكسة وغير مسالمة تؤمن بالثورة على الاستبداد السياسي، وتنتفض ضدّ الأنظمة الطبقيّة، فالصّراع الطّبقي هو الماكنة التي تحرّك التاريخ، وتدفع بالمجتمعات إلى التحول نحو مصائرها الثوريّة، من أجل صناعة مجتمعات دون تفاوت طبقي، ودون امتيازات بورجوازيّة للفئة الحاكمة، أو المتحالفين معها. بسبب ذلك تحارب الأنظمة السياسيّة المستبدّة الثقافة الماركسيّة بدعوى عدائها للأديان. غير أنّ ما هو حاصل هو أنّ الأنظمة المستبدّة تحوسلُ الدّين، من أجل أن تهيمن على شعوبها وتجعلها تقبل بقدرها وبوضعها الأقلّوي.

عرف النقد الإيديولوجي عصره الذّهبي في الوطن العربي في حقبة السبعينات والثمانينات من القرن الماضي على أيدي محمود أمين العالم، وحسين مروى وسلامة موسى وغالي شكري وفيصل دراج، في الوقت الذي كان النقد الجزائري الإيديولوجي في مراحلة الجنينيّة. فمؤسسوه الحقيقيون كانوا لا يزالون طلابا في تلك الحقبة المتقدّمة، ومن أهمهم محمد ساري وواسيني لعرج، وسعيد علوش في المغرب، وفي هذا السياق "ظهرت موجة نقديّة عارمة تدعو إلى التّشديد على البعد الاجتماعي للنص الأدبي وتُقاربُه من حيثُ مدى تمثله لهذه الزاوية ومدى مواكبته لهذه التحولات الاجتماعية الجديدة. وبدأ الخطاب النقدي الجزائري ينفتح على خطابات إيديولوجيّة خارجيّة (ماركس، لينين)

وأخرى أدبيّة نقديّة (لوكاتش/ غولدمان)"[1]. لقد وجد النقد الإيديولوجي لدى المؤسسة الجامعيّة احتفاء لا نظير له. غير أنّ الجزم بوجود مدرسة نقديّة في الجزائر تتبنّى النظريّة النقديّة الماركسيّة، لا أساس له من الواقعيّة. توجد بعض الدراسات والمقالات من قبل الناقدين الأكاديميين (ساري ولعراجي)، كما توجد العديد من رسائل الدّكتوراه والماجستير قدّمها باحثون جزائريون في مرحلة الثمانينات ومطلع التسعينات. وكان النقّاد المعروفون بتحيّزهم للفكر الماركسي يمارسون ما يسمّونه نقدا اجتماعيا، أو واقعيا، تفاديا لكل مصادمات مفترضة مع القرّاء المحافظين المهتمين بالشّأن الثقافي والنقدي بشكلٍ خاص. وكانت هذه الدراسات أو المقالات التي تنضوي تحت مسمّى النقد الاجتماعي تُنشرُ في المجلات الأكاديميّة، وأحيانا في الصحف والجرائد اليوميّة.

من أعلام النقد الاجتماعي في مرحلة الثمانينات نذكر الناقد المرحوم محمد مصايف، الذي يدعو إلى خدمة قضايا المجتمع من خلال الأدب بكلّ أجناسه. فقد ورد في كتابه (دراسات في النقد والأدب) قوله "أنّ رسالة الأديب الجزائري في الساعة الحاضرة رسالة مزدوجة، فمن جهة أولى ننتظرُ منه أن يكون لسان الطّبقة الكادحة. ومن جهة ثانية ينبغي له أن يعمّق الاتّجاه العقائدي الذي تعتنقه وتسيرُ عليه هذه الطّبقة"[2]. في مقولة مصايف تشيع مصطلحات ومفردات تنتمي إلى حقل النقد الإيديولوجي المتعالق مع الفكر الماركسي الذي يؤمن بأنّ الأدب في علاقة جدليّة مع الواقع، (رسالة، الطبقة الكادحة، العقائدي) فهو ينبثق من عمقه، لخدمة قضاياه. إنّ الأديب والناقد كلاهما تحكمه رسالة أخلاقيّة تجاه الأمّة، فهو ملتزمٌ بها في كلّ ما يكتب.

وفي هذا السياق أورد في كتابه "الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعيّة والالتزام تصنيفا للروايات التي شملتها الدراسة "بحسب الملامح العامّة لموضوعها (الرواية الإيديولوجيّة، الرواية الهادفة، الرواية الواقعية، رواية التأمّلات الفلسفيّة، رواية الشخصيّة)، أمّا بنية الخطاب الروائي فلا تظهرُ إلاّ بشكل خافت، لأنّ المهمّ الإجمالي للنّاقد

---

[1]-يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسنيّة إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافيّة، ط الأولى 2002، ص41/42.

[2]-محمد مصايف، دراسات في النقد والأدب، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر 1988،

منصبٌّ على المحتوى الموضوعي للنصّ وما يعتلجُ فيه من صراعات طبقيّة"[1]. إنّ معيار الجودة عند النقاد الاجتماعيين هو موضوع العمل ومدى تمثيله للصراع الطّبقي ومعاناة المسحوقين، لا يهمّ بعد ذلك شعرية اللغة والمستوى الدرامي للحبكة السرديّة، ومستوى التّخييل.

كانت هذه العقيدة منتشرة بكثرة في أوساط الفئة العاملة، يؤمن بها المثقف العضوي كما يؤمن بها القارئ الناشئ. ونفس الشي ينطبق على الناقد والمبدع والمترجم محمد ساري، الذي كرّس قلمه لخدمة المجتمع من منظور ماركسي، رغم ما آلتْ إليه هذه النظريّة من تراجع وفتور، بعد أن تخلى عنها دعاتها الأوائل من الغرب ومن الشرق.

فمحمّد ساري علىا سبيل المثال وسعيد بوطاجين وبورايو عبد الحميد مارسوا النقد النسقي أكثر ممّا كتبوا حول النقد الماركسي. بل إنّ سعيد بوطاجين من بين رواد النقد البنيوي والمؤسسين له في الجزائر. أمّا بورايو فتكاد كل دراساته النقديّة تكون سيميائيّة وبنيويّة، بعيدا عن عقيدته الإيديولوجيّة الماركسيّة.

لا يزال الفكر الماركسي يتخلل كلّ النظريات النقديّة اليوم، ولكنها انهارت كمنظومة فكرية وفلسفةٍ وجودٍ قابلة للتحقق. فمنذ أن تفكّك الاتّحاد السوفياتي لم يعد أشهر الماركسيين في العالم يؤمنون بأنّ الماركسيّة تمثّل حلاّ واقعيّا ممكن التحقق لأزمات العالم.

في المغرب الأقصى ذاع صيت الناقد حميد لحماداني في النقد الإيديولوجي ذي المرجعيّة الماركسيّة. ومن أشهر كتبه في هذا السياق "النقد الروائي والإيديولوجيا/ من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النّصّ الروائي".غير أنّ هذا الناقد يبدو أكثر نضجا من سابقيه في الجزائر، من خلال تحليله للرواية علاقتها بالإيديولوجيا. ولكن قبل ذلك تبدو الماركسيّة عند هذا الناقد رؤية للعالم تتسم بالعمق والشمول، وحمّالة لقيم الوجود الروحيّة والفكرية والسياسيّة والإنسانويّة.: "تتميز الإيديولوجيا بكونها نسقا للتصور عن العالم من حيثُ أنّ الوظيفة العملية الاجتماعية تتغلب فيها على الوظيفة النظريّة المعرفيّة"[2]. النظرية الماركسيّة إذا، وهي المقصودة في هذا السياق ب(الإيديولوجيا)، هي

---

[1]-يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونيّة إلى الأنسنيّة، ص48/47.

[2]-حميد لحميداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، ط الأولى 1990، ص18.

منظور شامل للحياة العملية وقالب من قوالب التفكير في العالم وفي الذّات، وليست وشاحا نلفّ به أعمالنا الإبداعيّة، ومن هذه الناحية، وكضرورة منطقيّة تصبح الإيديولوجيا خيارا جماليّا في العمل الأدبي قبل أن تكون موقفا من المجتمع وصراعاته. إذا كانت الفكرة الإيديولوجيّة هدفا في حدّ ذاته، فإنّ الخطاب الأدبي يتحوّل إلى عمل دعائي، مبتذل، وخاليا من الروح. "إذا أراد الكاتب أن ينقذ عمله من التبشيريّة والخطاب الدعائي، عليه أن يقوّي من الوسائل الفنية التمويهية وأنجح وسيلة تغطي هذا الموقف الإيديولوجي المباشر هي عادة الطاقة الشعرية. فلجلب انتباه القارئ على الكاتب أن يسحره بالوسائل الإبداعيّة"[1]، من تخييل وتمثيل ولغة أدبية.

كما صدر كتاب للناقد الماركسي سعيد علوش تحت عنوان "الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي". ومن المعروف أنّ المغرب العربي وبدءا من النصف الثاني من القرن العشرين عرف غزارة في عدد الروايات ذات المرجعيّة الماركسيّة، ومن أهمّ كتّابها "ساري محمد" و"الطاهر وطار" و"واسيني لعرج" و"محمد شكري" و"شكري المبخوت" إلخ. فقد كان اليسار الثقافي في النصف الثاني من القرن العشرين مهيمنا على الساحة الأدبيّة.

النقد ما بعد الحداثة في المغرب العربي:

النقد ما بعد الكولونيالي:

إنّ ممّا أسفرت عنه ما بعد الحداثة، هو أنّ طوباويّات القرن العشرين، لم تعد تستهوي المهتمّين بالشأن الثقافي والفلسفي والأدبي. إنّ انهيار السرديّات الكبرى ولّد خيبة لدى المجتمعات العالمة في الشرق والغرب على حدٍّ سواء. غير أنّ الحكومات الغربيّة الاستعماريّة التي أفشلت مشاريع التنوير الأوروبيّة، تمادتْ في سياساتها الكولونياليّة مع تغيير أدوات الهيمنة على مستعمراتها القديمة. فدول المغرب العربي على سبيل المثال لا تزال تعاني من الهيمنة الغربيّة على مقدّراتها، والمثقّفون الثوريّون والوطنيّون يرفضون هذه الامبرياليّة المسلّطة على الشّعوب الأقلّ تطوّرا. وقد تبلورت هذه الانشغالات من قبل الأدباء والنقاد على مستوى الخطاب النّقدي بشكل خاص. إنّ التوجّه نحو النقد ما بعد

[1]-حميد لحميداني النقد الروائي والإيديولوجيا، ص 43.

الكولونيالي من قبل النقّاد المغاربيين أضحى هاجسا استراتيجيّا يهدفُ إلى تنوير القارئ العربي وشحنه لتصحيح وعيه بواقعه، وبمحيطه الثقافي والسياسي.

إنّ تكالب الشباب المغاربي وتهافتهم على الهجرة باتّجاه المركز سببه الجهل بالطّبيعة العنصريّة للغرب الاستعماري. ويقف وكلاء الاستعمار بالدّاخل المغاربي وراء تكريس التبعيّة لمستعمر الأمس، وبينما يتصدّى الناقد بوصفه مثقفا عضويّا إلى هذا النظام الكولونيالي الذي يثبّت العرب والأفارقة في غيريّة قاتلة، ويفضح أسسه العنصريّة من خلال الممارسات الأدبيّة والنقديّة. من أجل ذلك بدا لنا هامّا أن نكشف عن جهود المغاربة في مجال النقد الثقافي والنقد ما بعد الكولونياليّة وما أنجزوه لحدّ الساعة، وأهدافهم من خلال هذه المشاريع النقديّة. والواقع أنّ النقد الثقافي في مطلع الألفيّة الثالثة يلقى رواجا لا نظير له في المغرب العربي، أكثر من أيّ منطقة عربيّة أخرى. ولا أدلّ على ذلك من اهتمام الجامعات المغاربيّة بهذا الحقل النقدي في المؤتمرات الدوليّة والمحافل العلميّة بشكل لافت.

من بين الذّين اهتموا بالنقد الثقافي يخطر بالبال الناقد الجزائري بعلي حفناوي، وله مؤلفات عديدة في هذا التخصص، من أهمها النقد الثقافي المقارن والنقد النسوي. نذكر أيضا الأكاديمي وحيد بن بوعزيز ومن مؤلفاته في هذا السياق "العين الثالثة" وهو كتاب جماعي في النقد الثقافي والنقد ما بعد الكولونيالي، وله أيضا "جدل الثقافة" وهو أيضا دراسات في الآخريّة وما بعد الكولونياليّة والدّيكولونياليّة.

من بين من كتب في النقد ما بعد الكولونيالي صاحبُ هذه الورقة، ومن مؤلّفاته "أطياف الاستشراق" وهو عبارة عن دراسات نقديّة حول روايات أمين معلوف وعلاقتها بالفكر الاستشراقي، وكذلك كتاب "التفكير في الآخر" وهو كما يوحي عنوانه يدرس صورة الذّات العربيّة في الفكر الغربي في ظلّ الامبريالية العالميّة. للباحث ذاته أيضا كتاب "التابع يتكلم" وهو دراسات حول صورة التابع وعلاقته بالمركز من خلال سرديّات أمل بوشارب. كتب الباحث أيضا دراسة حول ثلاثيّة جلاوجي "الأرض والريح" وفق مرجعيات النقد ما بعد الكولونياليّة، وتحت عنوان "صناعة الوعي في ثلاثيّة جلاوجي"، فضلا عن مقالات في النيوكولونياليّة حول سرديّات محمد ساري وياسمينة خضرا، وجلاوجي، وهي منشورة في

مجلات جامعيّة متنوّعة. ومن بين تلك المقالات نذكر "بلاغة الخطاب الكولونيالي في رواية فضل الليل على النهار" وهو منشور في (مجلة اللغة العربية وآدابها) ومقال "الرواية والامبرياليّة) وهو منشور في مجلة (اللغة العربية) التابعة للمجلس الأعلى للغة العربية. وكذلك مقال "بنية الفكر الاستشراقي في رواية رحلة بالداسار لأمين معلوف، وهو منشور في (مجلة المعيار). ومقالات أخرى كثيرة لا يسمح المقام بذكرها.

ويقرّ ذات الباحث أنّه مدينٌ بشكل مطلق إلى إدواد سعيد، فقد كان قارئا نهما لمؤلفاته التي تشكّل تأسيسا عميقا لنقد الخطاب الكولونيالي، وأهمّ تلك المؤلفات التأسيسيّة "الاستشراق، و"الثقافة والامبرياليّة" والعالم والنص والناقد". كما يدين في رؤيته النقدية للناقدين باختين وتودوروف، اللّذين فضحا نظرة الغرب الدّونيّة للأعراق غير الأوروبيّة.

يهدفُ النقد ما بعد الكولونياليّة إلى تفكيك الخطابات الاستعماريّة والهيمنة الامبرياليّة وتعالقاتهما مع وكلاء الاستعمار المحليين، من خلال الرواية والمسرحيّة والقصّة. فالسّرد هو الفضاء الأثير للكتابة التّخييليّة التي تمثّل صوت الكولونياليّة ومضادّاتها في المغرب العربي. إنّها الممارسة النقديّة الأكثر قدرة على تصفية العقول من بقايا التبعيّة للغرب، واستعادة الثقة في ما كان ولا يزال يُسمّى العالم الثالث. ونخصّ بالذّكر مجتمعات المغرب العربي التي تشهد في السنوات الأخيرة نهضة ثقافيّة غير مسبوقة بسبب تراجع صورة الغرب في المخيال الرمزي للمغاربيين. فنحن نعي جيّدا أنّ الكولونياليّة لم تتخلّ عن أهدافها الاستعماريّة في بلداننا، ولا تزال تمارس علينا شهوة الحكم من خلال إملاءات مهينة على مسئولينا.

كما هو واضحٌ من خلال هذه السرديّة، فإننا نشعر أنّ الجزائر تفتقر إلى النّخبة العالمة، التي تنتج المعرفة في هذا الحقل النقدي الحسّاس، لعلاقته بالأزمة بين الشرق والغرب. فمعظم المهتمّين بهذا الحقل النّقدي تُعدّ مؤلفاتهم على أصابع اليد، فإذا أغفلنا البصر عن المقالات، فإننا لا نكاد نجد شيئا يُذكر. وهذا النقص يوحي بوجود أزمة مقروئيّة، وكذلك أزمة نشر. فسياسة النشر في الجزائر لا تغري بالكتابة. فالكتاب لا يُقرأ إلاّ من قبل الباحثين المتخصّصين، والقراءة في المجتمعات العربيّة ليستْ فعلا جماهيريّا. من أجل

ذلك توجد أزمة نشر، وأزمة إنتاج، وأزمة وعي؛ وهي ظواهر سلبيّة متشابكة توحي بأنّ حركة التنوير المغاربي تسير بخطوات بطيئة.

وبالانتقال إلى المغرب، نجد الحالة أفضل نسبيّا ممّا هي عليه في الجزائر، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الجزائر عانت من استعمار استيطاني مدمّر، بينما عاشت المغرب حماية فرنسيّة، والفرق بين الحالتين لا يُخطئه الإدراك. إنّ سنوات حرب التحرير الكبرى حوّلتْ الجزائر إلى أرض محروقة، ذات اقتصاد مدمّر. مضافٌ إلى ذلك الأزمات السياسيّة والاقتصاديّة التي عرفها البلد في نهاية الثمانينات بسبب الوصاية الأوروبيّة، وما أعقبها من تدمير ذاتي طيلة التسعينات، كلّ ذلك عرقل بشكل دراماتيكي حركة التنوير بالجزائر، ونتيجة ذلك ما نراه اليوم من ضعف المقروئيّة، وتدنّي مستويات البحث العلمي في الجامعات الجزائرية مقارنة بجامعات المغرب أو تونس.

وبالعودة إلى راهن النقد الثقافي والنقد ما بعد الكولونياليّة في المغرب فإنّنا نجد إنتاجا لا يقلّ أهميّة عن نظيره في الغرب. ذلك أن جيل الثمانينات قد تتلمذ على أساتذة غربيين في جامعات أوروبيّة. من الأسماء التي علا كعبها في مجال النقد الثقافي والسوسيولوجي عبد الكبير الخطيبي، صاحب "النقد المزدوج"، و"الاسم العربي الجريح" و"السياسة والتسامح"، وعناوين أخرى لا يتحمّل المقال سردها. وتُعتبر كتاباته في مجملها العين الناقدة للمجتمعات العربيّة وأسس الثورة على الذّات من أجل تحقيق التنوير العقلاني خارج إطار الأنماط التقليديّة للإصلاح، وبعيدا عن الذّوبان في النموذج الغربي الجاهز الذي يبتلع مكونات الهوية العربيّة والإسلاميّة جملة وتفصيلا. ويطلقُ على هذا النمط من الكتابة "النقد الحضاري"، على غرار كتابات مالك بن نبي في الجزائر. والجدير بالملاحظة أنّ عبد الكبير الخطيبي يكتب باللّغة الفرنسيّة، وهو من هذا المنظور أوسع أفقا وأعمق فكرا من المشارقة، في مرحلة تفتقرُ فيها المكتبة العربيّة إلى هذا النوع من الكتابة التنويريّة. محمد دكروب هو الآخر ضالع في النقد الحضاري من خلال كتابه "صناعة التاريخ المستقبلي" و"وجوه لا تموت". فهو كاتب فرونكوفوني، قد تشبّع بثقافة غربيّة حداثيّة، ويواجه من خلالها مجتمعات عربية لا تزال تعيش على أنماط الماضي فكرا وسلوكا.

ناقدٌ مغربي آخر ضالعٌ في النقد الثقافي والنقد ما بعد الكولونيالي، وهو إدريس الخضراوي مؤلف كتاب "سرديات الأمّة" وهو عبارة عن دراسات في الرواية المغربيّة على ضوء آليّات النقد الثقافي/ الرواية والذّاكرة، الرواية ومعطيات الهويّة/ الرواية وكتابة الذات في زمن العولمة والتشظّي الهويّاتي.

وللناقد كتاب آخر في النقد ما بعد الكولونيالي تحت عنوان "الرواية العربيّة وأسئلة ما بعد الاستعمار"، وهي دراسة للرواية العربية من منظور مرجعيات ومقولات ما بعد الاستعمار، وأسئلة الآخريّة في ظل سلطة الامبرياليّة العالمية المهيمنة على مناطق النفوذ ومنابع القوّة.

أمّا الناقد فريد الزاهي فقد كتب العديد من المؤلفات النقديّة في الآخريّة والجسد والأنوثة والذّكورة. ومن أهمّ مؤلّفاته "الصّورة والآخر" و"الحكاية والمتخيّل" و"الجسد والصّورة والمقدّس" و"النصّ والجسد والتأويل" ومؤلّفات أخرى كثيرة، وكلّها حول النقد النسوي والهيمنة الذّكوريّة والجنسانيّة" والآخريّة.

السؤال الملحّ الآن، ما هي دواعي مثل هذه التيارات الفكرية الجارفة في الثقافة المغاربية ما بعد الاستعمار التقليدي؟ هل هي مرحلة حتميّة تسبق الاستقرار؟ لا يخفى على أحد أنّ المغرب العربي وعلى غرار العالم العربي كلّه قد أخطأ طريق النّهضة عندما قطع الارتباط مع ماضيه الحضاري ودخل في عمليات مثاقفة غير مشروطة مع الغرب. وهي مثاقفة كما هو معلوم تحت الإكراه. فالمثاقفة علاقة ثنائيّة جدليّة، ومن اطراف متعدّدة. والحال أن العرب كانوا يأخذون كلّ أسباب نهضتهم عن الغرب دون أن يقدّموا شيئا من تجاربهم الثقافيّة لآخرهم، ودون أن يكيّفوا المادّة العلميّة المستعارة وفق النماذج العليا لثقافة الذّات. هذه التبعيّة المفرطة للآخر تكشف عن حالة انبهار بكلّ ما هو غربي، وازدراء لكل ما هو شرقي. والواقع أنّ روّاد النّهضة الأوائل الذين تتلمذوا على أوروبيين، وفي جامعات أوروبيّة بعد الحرب العالميّة الثانية، وخلال حقبتي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي تحديدا، قد عمدوا إلى إفراغ ذاكرتهم من ثقافة الأسلاف، وكأنّهم يتطهّرون من عقدة التخلف ليستحقّوا شرف تنوير بلدانهم. لقد كان لديهم استعداد مسبق للتخلي عن الماضي العربي بكلّ إيجابياته وسلبياته، ليتبنّوا نمط وجود غربي.

وقد شكّلت الترجمة للمعرفة الغربيّة في كلّ مجالاتها الأدبية والنقديّة والعلميّة السبيل المثالي لتوطين الحداثة الأوروبيّة بكلّ تبعاتها. غير أنّ هذا المسعى يلقى معارضة محمومة من قبل الطبقة المحافظة من المثقفين ومن المهتمّين بالشأن الأدبي والنّقدي. ومن رحم تلك المعارضة سينبثق النقد الثقافي الذي يصادر الحداثة على الطّريقة الغربيّة. ولقد كان مالك بن نبي من تلك الفئة التي تقاوم النّموذج الغربي للتحديث، وتقاوم الامبرياليّة الغربيّة التي ترغبُ في امتلاك العالم ووضعه تحت أقدامها.

إنّ التنوير العربي في حاجة ماسّة إلى تصويب اتّجاهه وإعادة النظر في منطلقاته الفكريّة والإيديولوجيّة، من أجل تجنيبه الفشل الذي مُني به مشروع الحداثة الغربيّة.

إنّ نسخة الحداثة التي سوّقها لنا الغرب من خلال وكلائه أثبتت فشلها من خلال عجزها عن تحقيق التنمية والتخلّص من التّبعيّة المذلّة للغرب بكلّ أقطابه. إنّ النهضة لن تتحقق ما لم نتخلص من بقايا الكولونياليّة، ومن آثارها ومخلفاتها. وهذه هي الرّسالة التي يبشّرُ بها بعض الروائيين المغاربة الذين يحملون هموم التنوير وتحرير الأمّة من حالة الوهن الذي أصابها بفعل استمرار حالة التبعيّة لآخرنا، وهي تبعيّة حضاريّة شاملة. ومن بين هؤلاء الروائيين نذكر جلاوجي من خلال رواية "راس المحنة" و"ثلاثيّة الأرض والريح، تلك الثلاثيّة التي كانت موضوعا لدراسة نقديّة ومعمّقة، درسنا فيها تمثيلات الثورة في الثلاثيّة، وتمثيلات المستعمِر والمستعمَر، واعتمدنا على مرجعيّات النقد ما بعد الكولونياليّة. وقد نُشرت الدراسة تحت عنوان "صناعة الوعي في ثلاثيّة جلاوجي". وللعنون دلالته، ويشير إلى أنّ الهدف من النقد الثقافي في المغرب العربي، وفي الوطن العربي عموما ملزمٌ بتمثيل رسالة المثقف في بلده، وهو (النقد الثقافي) شكلٌ من أشكال المقاومة الثقافيّة للامبرياليّة الغربيّة التي تسلبنا حقّنا في تمثيل أنفسنا، وفي أن نكون مختلفين، ومتميّزين. فالروائي والناقد والصّحفي والمسرحي، كلّ يكتبُ رؤيته للعالم وفق الخطاب الأدبي والسياسي الذي يمثّله، ولكنّ الرسالة لكلّ هؤلاء المقاومين هي رسالة واحدة، وهي تحقيق السيادة المطلقة على الذّات، وأن نعيش ضمن قيمنا التي تعلّمناها من ثقافتنا، ومن أسلافنا. غير أنّ خطاب المقاومة لا يقصي البعد العالمي لمشروع المجتمع الذي يدعو إليه المثقفون من خلال الممارسات الأدبيّة والنّقديّة على حدٍّ سواء. إنّنا ندرك أنّ الثقافة تقتلها العزلة، والعرب لا

يمكنهم أن يتجاهلوا آخرهم أو أن ينقطعوا عنه، بدعوى ماضيه الكولونيالي. إنّ حوارا حضاريّا فاعلا يبقى ممكنا ومثمرا بين الغرب والشرق من أجل تجاوز أزمة الثقة بينهما. إنّ ممّا يؤثَرُ عن الروائي البريطاني "كيبليتغ" قوله: أنّ الغرب غربٌ والشرق شرقٌ ولم يمكن أن يلتقيا، ونحن باعتبارنا داعين لحوار الحضارات نرفض هذه الدّعوة الإقصائيّة من قبل مستشرق سيء السّمعة. فالشرق والغرب يمكنهما أن يلتقيا في حوار حضاري إيجابي، ومتوازن، يحقق الكفاية المعرفيّة لكلا الطّرفين، ويحقق تجاوز عقد الماضي ويطهّرنا من بقايا الكولونياليّة ومن شهوة حكم الآخر.

مستقبل الدراسات الثقافية في المغرب العربي:

يطرح نادر كاظم سؤالا وجيها، ماذا لو توقف الأدباء عن الإنتاج بكلّ أشكاله، ما الذي سيحصل؟ الجواب هو أنّ العالم سيصبحُ أكثر قبحا، لأنّ الأدب يمثّلُ الواقع بطريقة جماليّة، فهو يجعل الحياة أكثر قبولا. ويطرحُ السؤال الآخر ما الذي سيحصل لو توقّف نقاد الأدب عن الكتابة؟ الجواب هو لا شيء. سيستمرّ الأدباء في تمثيل العالم، وسيستمرّ قرّاء الأدب في الاستمتاع به وتصحيح الوعي بالذّات وبالكون من خلال تلك القراءات. يترتّب عن ذينك السؤالين سؤالٌ ثالث: ما السبب في تجاهل الساحة الأدبية للنقد الأدبي؟ بعض الإجابة عن هذا السؤال يفرجُ عنها الغذّامي من خلال كتابة "النقد الثقافي"، لا يملك النقد الأدبي بالشكل الذي هو عليه الآن الأدوات الإجرائيّة التي تمكنه من الكشف عن معرفيّة النّصوص الأدبيّة بحكم انشغال هذا النّقد بمُعامِلِ الأدبيّة. "لقد أدّي دورا مهما في الوقوف على جماليّات النّصوص، في تدريبنا على تذوّق الجمالي وتقبل الجميل النّصوصي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقيّة المختبئة من تحت عباءة الجمالي"[1]. ذلك أنّ النقد الأدبي يشتغلُ على النصوص، ويعتاش عليها. ووجوده مرهون بوجود المادّة الأدبيّة. إنه خطاب حول الخطاب، وكلام حول الكلام. فهو بالتالي، وبالشكل الذي يُمارَسُ به حاليا وسابقا، مهووسٌ بالأدبيّة. النقد الأدبي قاصرٌ عن الدّخول المباشر للمجتمع، وإثارة

---

[1]-عبد الله الغذّامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الثالثة 2005. ص7/8.

مشكلاته المزمنة ومعالجتها. وإذا فعل الناقد الأدبي ذلك، فإنه لن ينتج نقدا أدبيا ولكنه سينتج نقدا ثقافيا.

من هنا يتبين لنا أنّ النقد الثقافي أثبت أولويّته في مواجهة التحديّات الثقافيّة والمعرفيّة لعصرنا. وهذا موقف نقّاد الثقافة المغاربة الذين أثبتوا من خلال ممارساتهم النّقديّة أنهم لم يعودوا مرتهنين بالنّصوص الأدبيّة على أهميتها في صلب عملهم. غير أنّ نقّاد الثقافة إذا انطلقوا من مدوّنات أدبيّة، فإنهم لن يتوقفوا عندها، بل إنهم ذاهبون بعيدا في تشريح قضاياها الفلسفيّة والمعرفيّة والاجتماعيّة ببصيرة نقديّة عالية الاشتغال. وكمثال على ذلك سأسوق مثلا عن دراسة ثقافيّة لقصّة قصيرة كنت درستها ضمن كتاب "التابع يتكلم"[1]. كانت الدراسة منصبّة حول قصّة قصيرة تتألف من أربعة عشر صفحة. غير أنّها تثير موضوعات راهنة بالغة الأهميّة والخطورة؛ فهي تتناول استجواب صحفيّة إيطالية لفتاة قاصرة تنتسبُ لأسرة مغربيّة اضطرّها الفقر للهجرة إلى إيطاليا طلبا للبقاء على قيد الحياة. والدّراسة تستغلّ هذه الحالة البائسة للإجابة عن سؤال طرحته سبيفاك سابقا: هل يستطيع التابع أن يتكلّم؟ وللإجابة عن هذا السؤال انطلاقا من مدونة قصيرة، كشفنا اللثام عن قضيّة إنسانيّة يعيشها عصرنا اليوم وهي قضيّة الأقليات العرقيّة والثقافيّة التي تعيشُ في الغرب، وقضيّة العنصريّة، وقضيّة علاقة المركز بالهامش، وقضيّة الفساد الأخلاقي والمالي للمنظّمات غير الحكوميّة في أوروبا، والمقاومة الثقافيّة التي تنبّه إليها التابع من قلب المركز. كذلك أثيرت قضيّة وكلاء الاستعمار في دول الهامش ودورهم في خلقِ أفواجٍ من التابعين، والإرسال بهم إلى جحيم العبوديّة للغرب الكولونيالي.

فلو اكتفينا بوظيفة النقد الأدبي لعمينا عن هذه القضايا الكبرى التي تؤرّقُ الطّبقة المثقفة في المغرب العربي الكبير. ونفس الشيء مع دراسة "التفكير في الآخر"[2]، حيث انطلقنا من رواية "سباق المسافات الطويلة" لعبد الرحمان منيف للكشف عن صراع المصالح الذي يحتدمُ في قلب الامبرياليّة الغربيّة في العالم العربي. وكذلك كشفنا عن لعبة المخابرات الغربيّة في العالم العربي وحجم المكر الذي تحبكه للإيقاع بالأنظمة العربيّة

[1]-الكتاب صدر عن دار initiation scientifique، بالجزائر، 2021.

واستخدامها لسرقة استقلالها الوطني. هذه القضايا المزمنة التي لا يزال العالم العربي من المحيط إلى الخليج يعيشها ويكابد تبعاتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى يومنا هذا، نجد لها حضورا في هذه الدراسة التي انطلقت من النص إلى غرف المخابرات المظلمة في الشرق العربي، وإلى الطّبقة الحاكمة في الأنظمة العربيّة وطريقة تعاملها مع الاستعمار الجديد.

يستطيع النقد الثقافي بكل حلقاته (النقد ما بعد الكولونياليّة والنقد النسوي والديكولونياليّ) أن ينجز الكثير في إطار تنوير المجتمعات المغاربية وتحرير العقول من بقايا الاستعمار، وتحفيز الطاقات الإيجابيّة.

والعمل على استعادة أمجاد الحضارة العربيّة والإسلاميّة، انطلاقا من مرجعيات الحاضر. فمستقبل الأمم يوجد في تسعة أعشارٍ منه في ماضيها.

نقد مرجعيات النقد الثقافي المغاربي الراهن:

ممّا لا شكّ فيه أنّ ناقدي الثقافة أو الأدب من جيل السبعينات والثمانينات في الدّول المغاربيّة قد تتلمذوا على يد أساتذة غربيين في جامعات فرنسا. فهي الدّولة التي تُوجّهُ إليها البعثات العلميّة في تلك الفترة من الدول المغاربيّة الثلاث. ومن الطّبيعي أنّ هؤلاء الذين تلقّوا تعليما فرونكفونيا سيعودون إلى بلدانهم بغير الوجه الذي غادروها به. وأغلبيتهم تحوّلوا إلى نقّاد ماركسيين، ومن ثمّ عملوا على الترويج لتلك النظريّة التي لا علاقة لها بنماذجنا الثقافيّة العليا، ولا بمرجعياتنا التاريخيّة، والذي حصل جرّاء هذه الخلطة الثقافيّة والإيديولوجيّة هو نشوء وعي اجتماعي هجين، نتجتْ عنه اضطرابات اجتماعيّة خطيرة، ليس أقلّها أحداث التسعينات في الجزائر، والثمانينات في تونس، وفي المغرب لا يزال المجتمع يعاني من تمزّقات في نسيجه الدّاخلي والخارجي، نتيجة انشطار الهويّة وتشظيها في غالب الأحيان.

في دراسة منصبّة على نقد الثقافة العربيّة، لعبد الكبير الخطيبي، يطرحُ هذا الأخير انطلاقا من الفولكلور المغربي أسئلة التحرير من خلال ضرورة التحرّر من ثقافة الماضي. وفي تقديمه لهذا الكتاب للقارئ العربي يقول محمّد بنيس ممهّدا لتلقي الكتاب: "لقد اهترأ العالم العربي بتراكم المفاهيم والقيم المتعالية التي تفصلُ بين الإنسان وجسمه، الإنسان

ومستقبله، تحرم متعته وشهوته وتغيّره"[1]. يُرجعُ عبد الكبير الخطيبي المفكر المغربي الفروكونوني اهتراء العقل العربي إلى قيمه المتعالية، والمقصود بذلك هي النّصوص الدّينيّة التي يتشكّلُ منها النظام الثقافي العربي الذي يُعتَبَرُ الإسلام أهمّ مرجعياته. ومن هنا، فلا يمكن تحرير الجسد العربي من اضطهاده إلاّ إذا حررناه من قيوده وضوابطه اللاهوتيّة (على حدّ تعبير الخطيبي الذي يستعير جهازا مفاهيميّا غربيّا في نقده للثقافة العربية). ويستمر بنيس في نفس السياق وفي نفس الصفحة ليجادل أنّ "العلائق الاجتماعيّة التي ندعو إلى تغيير بنياتها من حالاتها الإقطاعيّة والمتخلفة، غير منفصلة عن ضرورة تحرير الجسم الذي سُلِّطتْ عليه أصناف القهر"[2]. محمد بنيس اليساري المغربي هو الآخر يستعير مصطلحات ماركسيّة لوصف الحالة العربيّة. فإذا كان الناقد الأدبي يستهجنُ إسقاط مناهج النقد الأدبي الغربيّة على نصوص عربيّة لاختلاف الخلفيّة الحضاريّة بين النصّ والنقد، فكيف يستبيح إسقاط مقولات النقد الماركسي بكل جهازها المصطلحي والمفاهيمي على الحالة الاجتماعيّة العربيّة؟ علما أنّ محمّد بنيس هو في الأصل ناقدٌ أدبيّ. يتماهى بنيس مع الخطيبي في أطروحاته -التي أراها جوهر الاستلاب الثقافي-، ويمضي مهلّلا أنْ "آن لهذا الجسم أن يحتفل بمتعته وشهوته ويبدعُ قيما أخرى ليس من الضّروري تحديدها مسبقا"[3]. وإذا فإنّ هذا النقد يستهدفُ التبشير بمجتمع الشهوات والمتع، التي لا يحدّها حدٌّ ولا يدينها أحدٌ. إنّها التبشير المبكّر بقيم ما بعد الحداثة التي تتنكّر لكلّ الحقائق الميتافيزيقيّة ولكل الضوابط الأخلاقيّة. فالأخلاق في النهاية أداة الاستبداد السياسي من أجل تحقيق الهيمنة من خلال الإيديولوجيا. ولا يخفى التوجّه التفكيكي الذي يتستّر خلف مصطلحات النقد الاجتماعي والدّيني التي يسوقها بنيس في تقديمه للمادّة الدّسمة التي تسكنُ كتاب "الاسم العربي الجريح" لعبد الكبير الخطيبي.

[1]-محمد بنيس، تقديم كتاب عبد الكبير الخطيبي، الاسم العربي الجريح، منشورات الجمل، بغداد/ بيروت، 2009، ص8.

[2]-المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[3]-المرجع نفسه، ص 9.

في فترة ما بعد الحداثة، عندما فشل اليسار الماركسي على الصّعيد السياسي، وفقدت النظريّة الماركسيّة وهجها على الصّعيد النظري، وتجاوزها الماركسيّون أنفسهم، بعد ذلك، تخلّوا عن مشروعهم الإيديولوجي، وعن عقيدتهم اليساريّة، ولكنّهم لم يُغيّروا موقفهم من ثقافة الذّات في بلدانهم. إذْ أنّهم حافظوا على النّموذج الغربي للتنوير، وأنفذوا القطيعة المعرفيّة مع الثقافة العربيّة والإسلاميّة.

وهكذا نجد ناقدا مثل محمّد أركون يتمسّك بالرؤية التاريخيّة للنصّ القرآني، وبذلك يجرّده من صفة القداسة التي هي أصلٌ فيه. ففي الفكر الإسلامي يُعتبر النص القرآني فوق-تاريخي، ومتعالٍ، ولا يجبُ أن يؤوّلَ انطلاقا من أسباب التنزيل، لأنّ ذلك سيحرمه من عالميّته ولازمنيّته. ونفس الشيء يقال عن النقاد المغاربة الذين كانوا في معظمهم ماركسيين، ثمّ تخلّوا عن الماركسيّة كعقيدة، وحافظوا على الولاء للغرب بما يعني ذلك العلمانيّة والنّقد الدّنيوي.

الخاتمة: النقد الأدبي والثقافي في المغرب العربي وعلى غرار الحالة الثقافيّة العامّة لهذه المنطقة، يتطور بشكل بطيء، وبدرجات متفاوتة من منطقة إلى أخرى، تبعا لدوائر البحث العلمي الجاد. غير أنّه نقدٌ تابعٌ لنظريه في الغرب. والمقصود بالغرب بالنسبة للمغرب العربي فرنسا، بحكم الماضي الاستعماري لهذه المنطقة المتوسّطيّة.

بعد الاستقلال السياسي نحا المغرب العربي نحو تحديث ثقافته من خلال البعثات الجامعيّة إلى فرنسا، ومن خلال الترجمة، ومن خلال التعدديّة اللّغويّة. فاللغة الفرنسيّة هي اللغة الثانية في كلّ دول المغرب العربي، ومن خلالها يتمّ الاحتكاك مع مناهج النقد الغربي الحديثة ويتمّ ترحيلها إلى اللّغات الوطنيّة وتعليمها في الجامعات. هذه المثاقفة أنتجت جيلا من النقاد العرب في الجزائر والمغرب وتونس، وكان إنتاجهم تابعا لنظيره الفرنسي والأمريكي، غير أنّ خاصيّة المعاصرة بين التجربتين المغاربية والفرنسيّة غير متحققة. فالنقد ما بعد الحداثة في فرنسا تبلور مع أواخر السبعينات، بينما لم يظهر عندنا في الجزائر مثلا إلاّ في العشريّة الأخيرة من القرن الماضي، إذا استثنينا الدّراسات الثقافيّة لمالك ابن نبي، ولمحمد أركون.

كما أنّ النقد ما بعد الكولونياليّة، وتحليل الخطاب الكولونيالي لم يُمارس في الجزائر إلاّ في العشريّة الماضية، ومن خلال رسائل الدّكتوراه أو الماجستير، أو من خلال مقالات منشورة في مجلات جامعيّة، كُتبَ عليها أن تبقى حبيسة الرفوف.

إنّ مرجعيات نقاد ما بعد الحداثة في المغرب العربي هي مرجعيات غربيّة، بنسبة مطلقة. وفي ذلك ما لا يخفى من مخاطر تهدّد الهويات الوطنيّة للقارئ العربي والمثقف المغاربي بشكل خاص. فالنقد في أيّ ثقافة يستند إلى خلفية فلسفيّة وحضاريّة في المجتمع الذي ينتمي إليه. وينطبق هذا الحكم على النقد الغربي الذي تمّ استنساخه في المغرب العربي، دون تكييفه مع معطيات ثقافة الذّات. وكان من نتائج ذلك ما لا يخطئه الإدراك من اضطرابات اجتماعيّة وسياسيّة، في الدّول المغاربيّة كلّها، وإلى يومنا هذا. فنحن نتبوّأ منزلة التابع بالنسبة للغرب، ولا يزال الأوروبيون يؤدّون دور الأستاذيّة على المغاربة في كلّ مجالات المعرفة، وهذا انتقاصٌ من حريتنا ومن كرامتنا.